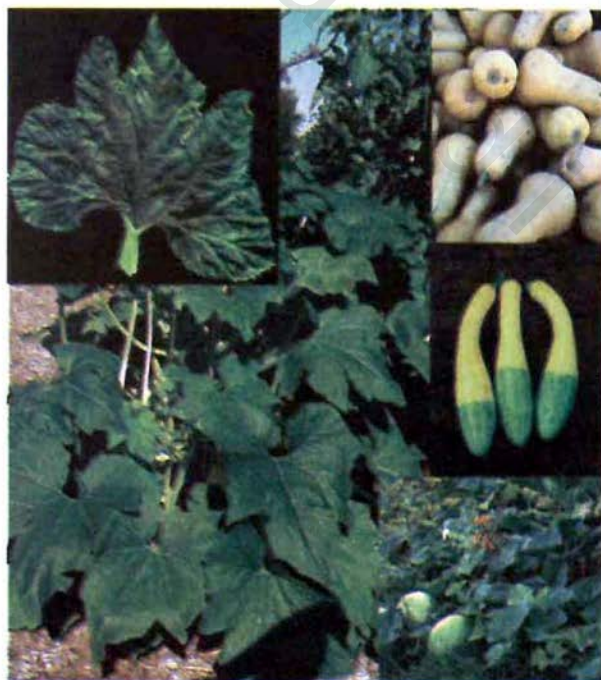


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ
وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾

(الصافات ١٤٥ : ١٤٦)



هذه الآية الكريمة جاءت فى الخمس الأخير من سورة الصافات، وهى سورة مكية، وآياتها اثنتان وثمانون ومائة بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بقسم بالملائكة الأطهار الذين لا ينفكون عن عبادة الله - تعالى - ويصطفون فى طاعته بأفضل مما يصطف كثير من عباد الله المكلفين من الإنس والجن فى الصلاة.

ويدور المحور الرئيسى للسورة حول عدد من القواعد الرئيسة للعقيدة الإسلامية، وفى مقدمتها الإيمان بالله - تعالى - وتوحيده التوحيد الخالص لذاته العلية، وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله من قبيل نسبة الشريك، أو الشبيه، أو المنازع، أو الصاحبة، أو الولد إليه - سبحانه وتعالى -، وغير ذلك من صفات المخلوقين؛ لأن الله - تعالى - منزّه عن جميع صفات خلقه. ومن ركائز العقيدة الإسلامية فى سورة الصافات الإيمان بالله، وبملائكته، وبكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره؛ والإيمان بالوحى وحقيقته، وبالبعث بعد الموت وبحتميته وضرورته، وبالخلود فى الآخرة إما فى الجنة أو فى النار، وإنها لجنة أبدًا، أو نار أبدًا، كما أخبر بذلك خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين -.

وفى سبيل الدعوة إلى الإيمان بهذه الركائز الإسلامية، والعمل على ترسيخها فى العقول والقلوب أشارت سورة «الصافات» إلى العديد من أشياء الكون وظواهره، ووظفتها فى الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة فى الخلق، وفى الشهادة للخالق - سبحانه وتعالى - بالألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وبالقدرة على البعث، كما وظفتها فى إقامة الحجة على أهل العلم - فى زمن تفجر المعارف العلمية الذى نعيشه - بأن القرآن الكريم لا يمكن أن

يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، وبأن الرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحى، ومُعَلِّماً من قِبَل خالق السماوات والأرض.

وفى نفس الوقت، وظفت سورة «الصفات» هذه الإشارات الكونية فى تفنيد دعاوى المبطلين من أهل الكفر والشرك والضلال، وفى تطهير العقول والنفوس من هذا الكم الهائل من الخرافات والأساطير التى نسجتها أنماط عديدة من العقول المريضة عبر التاريخ، انطلاقاً من همزات شياطين الإنس والجن، وتخريصات المبطلين، وشهوات الطامعين فى شىء من حطام هذه الدنيا الفانية. !!

عرض موجز لسورة «الصفات»

استهلّت سورة الصفات بقسم من الله - تعالى - بملائكته الكرام، وبعدهد من الوظائف التى أمروا بها، والله - سبحانه وتعالى - غنى عن القسم لعباده، ثم يأتى جواب القسم بقول الحق - تبارك وتعالى - : ﴿ إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ [الصفات : ٤].

وهو قرار إلهى يقتل كل جذور الكفر والشرك والضلال من العقول والقلوب التى عشتت فيها تلك الانحرافات الفكرية، وما أكثرها فى تاريخ البشرية الطويل، خاصة فى زمن الفتى التى تظلل أغلب أهل الأرض فى هذه الأيام. !!

وتشير السورة الكريمة إلى محاولات مرده الجن وشياطينهم لاستراق السمع عن أهل السماء، وأكدت أن الله - تعالى - قد سخر الشهب الثاقبة لَتَّبِعِهِمْ وَذَحَرِهِمْ، وتوعدهم ربنا - تبارك وتعالى - بعذاب شديد.

ثم يتوجه الخطاب بعد ذلك إلى خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - بالأمر الإلهى أن يسأل منكربى البعث، المستبعبدين لإمكانية وقوعه أن ينظروا فى خلقهم من طين لازب، وأن يُقَدِّروا محدودية كل فرد منهم بحدود مكانه فى بقعة محددة من الأرض، ويحدود زمانه (أى أجله)، ومقارنة ذلك بخلق السماوات والأرض بأبعادهما المذهلة، وأعمارهما المتطولة، فيدركوا أن الذى خلقهم من طين لازب، وحددهم بحدود المكان والزمان، وخلق الكون بهذا الاتساع، والضخامة فى الأبعاد، وتعدد الأجرام، وتنوع صفاتها، هذا الإله الخالق قادر على بعثهم، وبعث آبائهم الأولين وهم أذلاء صاغرون.

ثم تعرض سورة «الصفات» لموقف من مواقف الآخرة، وقد أطلقت صيحة

البعث وجميع الذين كانوا ينكرونه فى الدنيا، وكانوا يسخرون من إمكانية وقوعه، وهم يخرجون من قبورهم مشدوهين، فزعين، مذعورين، وهم يقولون : ﴿ يَا وَيْلَتَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ [الصافات : ٢٠].

فيسمعون الرد عليهم فى قول الله - تعالى - :

﴿ هَذَا يَوْمُ الْقِصَلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ (٢١) احْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ [الصافات : ٢١ - ٢٤].

وتستطرد الآيات (الصافات : ٢٥ - ٧٤) فى استكمال عرض هذا المشهد، والكفار والمشركون، والعصاة الظالمون عاجزون عن مناصرة بعضهم بعضاً، والذين اتبعوا من المشركين وشركائهم يتلاومون، ويتبادلون تهم الضلال والغواية، وفى ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - :

﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٢) إِنْ كَذَلِكُمْ نَفَعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَنَّا لَنَارْكَوَا آلِهَتَنَا لَشَاعِرٌ مِثْلُنَا (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَانِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٣٣ - ٣٩].

وفى ذلك تأكيد لبؤة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وشهادة من الله - تعالى - على صدق رسالته، وبرهان على وحدة رسالة السماء، وعلى أخوة الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليهم أجمعين -، وهو فى الوقت نفسه رد إلى جازم على الذين كذبوا ببعثته الشريفة، وتناولوا على شخصه الكريم بأقلامهم الرخيصة، أو بالسُّتْهم البذيئة فى الإذاعات والفضائيات المأجورة الغربية من مثل «قناة الموت» المسماة كذباً باسم «قناة الحياة» وادعاءاتها الباطلة، المختلفة والمفتراة وكلها مستمد من «كتاب الضلال» المسمى زوراً باسم «الهداية» والذى نشره الصهيونى المنتصر صموئيل زويمر - عليه لعنة الله - أو تستروا وراء شاشات «الشبكة العنكبوتية» كخفافيش الظلام ينفثون فيها جهلهم الفاضح، وأحكامهم الجائرة، وأحقادهم المريضة، وسمومهم البغيضة ضد الإسلام، وضد نبيه الكريم، وضد رموزه من عظماء المسلمين، بل ضد جميع المسلمين بما لا يستطيع هؤلاء الأقزام

المأجورون أن يقولوه مواجهة، لجبنهم وعجزهم، وضعف حججهم، وسقوط كل دعاوهم الباطلة. وهم يفعلون ذلك طمعاً في الصد عن دين الله الخاتم الذي لا يرضى ربنا - تبارك وتعالى - من عباده دينا سواه، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ثم تقارن الآيات في سورة «الصفات» بين إكرام الله تعالى لعباده المؤمنين بتعيمهم في جنات الخلد، وبالفوز العظيم برضاه - سبحانه وتعالى - وبين ما يلقيه كل من الكفار والمشركين المكذبين ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ من عذاب في الدنيا، ونار جهنم في الآخرة، وهم يصطلون بجحيمها، ويأكلون من زقومها، وعليهم شوب من حميم.

وتستمر الآيات في هذه السورة المباركة مؤكدة أن أكثر الأمم السابقة على بعثة الرسول الخاتم ﷺ كانوا قد ضلوا ضلالاً بعيداً على الرغم من إرسال عدد من الأنبياء والمرسلين إليهم، منذرين من مغبة الكفر بالله - تعالى - أو الشرك به، أو معصيته والانحراف عن المنهج الذي وضعه لاستقامة الحياة على الأرض، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾

[الصفات: ٧١ - ٧٤].

والإثبات ذلك استعرضت سور «الصفات» في أربع وسبعين آية من آياتها [٧٥ - ١٤٨] سير عدد من أنبياء الله ورسله منهم: نوح، إبراهيم وولده: إسماعيل وإسحاق، موسى، وهارون، إلياس، لوط، ويونس - على نبينا وعليهم جميعاً من الله السلام - . وفي قصص هؤلاء الأنبياء والمرسلين تجلت معية الله - تعالى - لهم ولعباده المؤمنين، ورحمته بهم، وتعهده بنصرهم وبدحر أعدائهم من الكفار والمشركين والظالمين، والتكليف بهؤلاء الضالين في الدنيا قبل الآخرة.

وكان من الفريد في قصص هؤلاء الأنبياء قصة نبي الله يونس عليه السلام الذي لبث في قومه (أهل نينوى) ردحاً من الزمن يدعوهم إلى دين الله الخالص فلم يطيعوه، فهددهم بعذاب الله، وتوعدهم به، ثم خرج غاضباً من بين ظهرانيهم من قبل أن يأذن الله - تعالى - له بذلك، وركب البحر وبدأت السفينة تترنح، وكادت أن

تغرق ، فاقترح أصحاب السفينة على ركبائها وخرجت الفرعة على نبي الله يونس (عليه السلام) فألقى به في البحر فالتقمه الحوت ، ولكن مع ترديده هذا الدعاء المنجي من كل كرب : (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) استجاب الله - تعالى - لدعائه فلفظه الحوت بالعراء وهو سقيم ، وأظله الله - تعالى - بشجرة من يقطين فنجاه وشفاه مما كان يعانيه ، وهنا يبرز السؤال : لماذا كانت الشجرة من يقطين ؟

وتعاود الآيات توجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين (عليه السلام) ليقوم بالرد على عدد من الخرافات والأساطير التي ابتدعها أهل الزيغ والضلال من الكفار والمشركين ، والتي منها : الادعاء الباطل بوجود نسب بين الله - سبحانه وتعالى - وبين الجن ، وأنه بناء على هذه العلاقة المختلفة بواسطة تصوراتهم السقيمة ، ونفوسهم المريضة كانت الملائكة وقد ادعى هؤلاء المبطلون عليهم بأنهم إناث . . . !!

وكذلك الادعاء الباطل على الله - سبحانه وتعالى - بنسبة الصاحبة والولد إليه وهما من صفات المخلوقين ، والله تعالى منزّه تنزيهاً كاملاً عن جميع صفات خلقه ، ولذلك قال عز من قائل :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُيُوتُ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكَهِمْ يَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتُ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ [الصافات ١٤٩ - ١٥٩] .

وتكرر الآيات في خواتيم سورة «الصافات» وعد الله لأنبيائه ورسله ، وجنده المؤمنين بالنصر والتمكين ، وهو وعد حق ، تعهد - سبحانه وتعالى - به ، والله لا يخلف الوعد ولا الميعاد . ولذلك تطالب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين (عليه السلام) باعتزال الكفار والمشركين ؛ لأنهم يستعجلون نزول عذاب الله ، وهو واقع بهم لا محالة ، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنْ جُنَدْنَاهُمْ لَالْعَالِيُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصَرَهُمْ فُسُوفٌ يُصْیِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا

يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿ [الصافات : ١٧١ - ١٧٩].

وتختتم سورة الصافات بتنزيه من الله - تعالى - لذاته القدسية موجهاً الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ فيقول :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٠ - ١٨٢].

وفى ذلك تأكيد على ربوبية الخالق - سبحانه وتعالى -، وتنزيه له - جل شأنه - عن كل وصف لا يليق بجلاله مما ادعى به كثير من المشركين، وتوقير لجميع رسل الله، وذكرهم بالسلام عليهم، وحمد الله على فيض نعمه في كل وقت وفي كل حين .

نبي الله يونس في القرآن الكريم

جاء ذكر نبي الله يونس عليه السلام في القرآن الكريم ست مرات، أربع منها باسمه الصريح (النساء: ١٦٣، الأنعام: ٨٦، يونس: ٩٨، والصافات: ١٣٩)، والخامسة جاءت بكنيته : ذا النون (الأنبياء : ٨٧)، والسادسة جاءت بصفته : صاحب الحوت (القلم: ٤٨)، وتكريماً له ﷺ سمى ربنا - تبارك وتعالى - إحدى سور القرآن الكريم باسمه وهي سورة «يونس» .

وهذا النبي الصالح عرفه لنا المصطفى ﷺ باسم «يونس بن متى»، وذلك بقوله الشريف : « لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » (البخاري ومسلم)^(١).

ويعرف نبي الله يونس بن متى عليه السلام عند أهل الكتاب باسم «يونا بن أمثاي» (Jonah son of Amittai)، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أهل نينوى، وهي محافظة في أقصى الشمال الغربي من الجمهورية العراقية (التي ندعو الله - تعالى - أن يعجل بتحريرها من دنس الاحتلال الأنجلو أمريكي الصهيوني الصليبي الغاشم والبغيض، في أقرب وقت ممكن إن شاء الله - تعالى) . وتعرف محافظة نينوى اليوم باسم محافظة الموصل، ومدينة نينوى كانت عاصمة الإمبراطورية الآشورية بعد مدينة (١) [صحيح البخاري (٣٣٩٥ و ٣٤١٦ و ٧٥٣٩)، ومسلم ص (١٨٤٦)].

آشور، ويرجع تاريخها إلى الألف الثالثة قبل الميلاد، وقد وصلت أوج ازدهارها بين القرنين التاسع والسابع قبل الميلاد، ولكنها دمرت حوالى سنة ٦١٢ ق.م. بعد غزو الميديين (The Medes) لها، وإن سكنتها بعض القبائل حتى العصور الوسطى. وبقيت أطلالها على الضفة الشرقية من نهر دجلة فى مقابلة مدينة الموصل تقريباً، ولا يفصلهما إلا النهر. وكان أهل نينوى قد انتكسوا إلى عدد من الوثنيات القديمة وعبدوا الأصنام بعد أن عاشوا فترة على التوحيد الخالص لله، ثم بعث الله - تعالى - إليهم نبيه يونس عليه السلام. وأقام فيهم ربحاً من الزمن يدعوهم إلى دين الله، ويقدم لهم الدليل تلو الدليل، ويقيم عليهم الحجة تلو الحجة، فأطاعوه واتبعوه، ثم عصوه، وكذبوا دعوته، فهددهم بعذاب الله، وتوعدهم به، ثم خرج غاضباً من بين ظهرانيهم قبل أن يأذن الله - تعالى - له بالخروج، فلامه الله - تعالى - على ذلك، بقوله - عز من قائل -:

﴿وَإِنْ يُونُسَ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أُنْقِلَ الْمَشْحُونُ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَاتَّقِمَ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَبَدَّلْنَا بِالْعُرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَأَمَّا فِتْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨)﴾

[الصافات: ١٣٩- ١٤٨].

وفى مقام آخر قال تعالى :

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾

[الأنبياء: ٨٧- ٨٨]

ومعنى هذه الآيات المباركات أن يونس عليه السلام حين خرج من نينوى مغاضباً لقومه ركب البحر فى محاولة للابتعاد عنهم، ولكن القرآن الكريم لم يحدد لنا اسم البحر، ولذلك تساءل المفسرون: هل من الممكن أن يكون هو نهر دجلة؟، أو إحدى البحيرات القريبة من نينوى مثل بحيرة أرميا فى أقصى الشمال الغربى من إيران؟ أو البحر الأبيض المتوسط؟ والله - سبحانه وتعالى - هو وحده الذى يعلم حقيقة هذا

الوسط المائي الذي التقم أحد حيتانه العملاقة نبي الله يونس عليه السلام. ومع هول المفاجأة ظل نبي الله يونس يردد هذا الدعاء المنجي: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» فاستجاب الله لاستغاثته، وأمر ذلك الحوت أن يلفظه إلى جانب البر حيا، وخرج يونس عليه السلام سليماً، معافى، فاهماً لحقيقة الدرس الذي كان من أهدافه ألا يتصرف في شأن من شئون الدعوة بغير أمر من الله - سبحانه وتعالى -.

وتروى لنا الآيات بعد ذلك أن الحوت لفظ عبد الله ونبيه «يونس بن متى» ملقياً به على الساحل، وهو في حالة من الإعياء والذهول والهزال الشديد. فأثبت الله - سبحانه وتعالى - عليه شجرة من يقطين، أظلمته، وسترته، وربما تناول شيئاً من ثمارها فعافاه الله تعالى من سقمه، وغفر له ذنبه، وهو - سبحانه - غفار الذنوب.

وهذه المعجزة التي أحدثها ربنا - تبارك وتعالى - لنبيه يونس عليه السلام معجزة إلهية حقيقية، والمعجزات لا تعلل، ولا تفسر، لأنها خارقة لقوانين الدنيا، وإن كان العلم يؤكد إمكانية ابتلاع أحد حيتان البحر العملاقة لرجل، وبقاء هذا الرجل حيا في فمه لبعض الوقت دون أن يصيبه أذى كبير، ثم يلفظه الحوت، خاصة إذا كان من نوع الحوت الأزرق (الهركول العملاق)، الذي يبلغ طوله نحو العشرين متراً، ويتميز بأنه لا أسنان له، وحلقه أضيق من إمكانية ابتلاع جسد الرجل.

ثم رأى قوم يونس، بعد مغادرة نبيهم لأرضهم وهو مغاضب لهم أن إرهابات العذاب الذي توعدهم به قد بدأت في الظهور، فسارعوا بالتوبة إلى الله وبالإجابة إليه حتى كشف عنهم العذاب وعادوا مسلمين لله، موحدين لجلاله، مقيمين لشعائره، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿قُلْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وبعد خروجه من ابتلاءاته عاد يونس عليه السلام إلى قومه وقد شفاه الله وعافاه، فوجدهم قد نبذوا الأصنام والأوثان. وعادوا إلى توحيد الله وعبادته وحده بما أمر، فسعد بهم وسعدوا به، وعاش بينهم داعياً إلى الله على بصيرة حتى لقي ربه راضياً مرضياً. وعاش أهل نينوى على التوحيد الخالص لله إلى ما بعد وفاة نبيهم يونس عليه السلام، ثم عاود الشيطان الوسوسة إليهم حتى اجتالهم مرة أخرى، وحرفهم عن

دين الله، وأعادهم إلى وثنياتهم الأولى فضلوا ضلالاً بعيداً، وإن بقى فيهم بعض الأحناف الذين احتفظوا ببقايا الحق القديم، وكان منهم «عداس» الذي شهد لرسول الله ﷺ بالنبوة حين مر ﷺ ببستان كان يعمل فيه في طريق العودة من الطائف إلى مكة المكرمة.

من الإشارات العلمية في سورة الصافات

جاء في سورة الصافات عدد من الإشارات العلمية التي يمكن إيجازها في النقاط التالية :

(١) الإشارة إلى ما بين السماوات والأرض، على ضخامة أبعاد السماوات، وضآلة أبعاد الأرض، مما يشير إلى مركزية الأرض بالنسبة إلى الكون، وقد أشار إليها المصطفى ﷺ في أكثر من حديث، ويعجز العلم الكسبي عن تحقيقها. ووجود إشارات في التراث القديم لتلك الحقيقة قد يكون من بقايا الوحي السماوي الذي أنزله ربنا - تبارك وتعالى - قبل بعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم -.

(٢) وصف الله الخالق - سبحانه وتعالى - لذاته العلية بأنه رب المشارق، وفي هذا الوصف من الحقائق العلمية ما يشمل كلا من كروية الأرض، ودورانها حول محورها أمام الشمس، وميل هذا المحور على مستوى الدوران، وجري الأرض في مدار محدد لها حول الشمس.

(٣) الإشارة إلى أن زينة السماء الدنيا هي الكواكب، وفي مقام آخر يقول ربنا - تبارك وتعالى - : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ٥]. وإجماع أهل العلم على أن المقصود بالتعبير القرآني مصابيح هو النجوم، والجمع بين النجوم والكواكب، ورجوم الشياطين - الشهب والنيازك - فيه إشارة إلى وحدة البناء في الكون، مما يشهد لله الخالق بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وذلك لأن الله - تعالى - يخلق النجوم من دخان السماء، وأنه - سبحانه وتعالى - يعيد النجوم بانفجاراتها إلى دخان السماء، والكواكب والشهب والنيازك مفصولة أصلاً عن النجوم، أو هي من نواتج انفجار النجوم.

(٤) الوصف القرآني للشهاب بأنه شهاب ثاقب، بمعنى ثقبه لظلمة السماء ثم

للغلاف الغازى للأرض ، وذلك بتحريكه بسرعات كونية هائلة قبل احتراقه بالكامل ، وفى ذلك إشارة إلى تلك السرعات الفائقة التى يتحرك بها كل من النيازك والشهب .

(٥) الإشارة القرآنية إلى خلق الإنسان من طين لازب تؤكد كلاً من الدراسات العلمية المتقدمة لجسم الإنسان وتركيبه الكيميائى والمعدنى .

(٦) ذكر عدد كبير من الأنبياء والمرسلين السابقين على بعثة الرسول الخاتم - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - ، وسرد جوانب من قصصهم وأحوال أهمهم بدقة تاريخية مذهلة ، ودون أدنى خطأ واحد ، وذلك من قبل أكثر من ألف وأربعمائة من السنين ، وفى أمة لم تكن أمة تدوين ، وهذه الدقة التاريخية يفتقر إليها ما بقى بين أيدي الناس اليوم من ذكريات صحائف أهل الكتاب وجميع كتب التاريخ .

(٧) اختيار شجرة من يقطين - دون غيرها من أنواع النباتات - وجعلها سترًا وظلالة لنبي الله يونس عليه السلام بعد أن أنقذه الله - سبحانه وتعالى - من فم الحوت الذى كان قد التقمه ، مما يشير إلى ما فى اليقطينيات من فوائد علاجية وغذائية لمن كان فى مثل ظروف نبي الله يونس عليه السلام فى أثناء ابتلائه بالحوت .

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها ، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الأخيرة فى القائمة السابقة ، وقبل الوصول إلى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين فى شرح دلالة هاتين الآيتين الكريمتين رقم [١٤٥ ، ١٤٦ من سورة «الصفات»] .

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله - تعالى - :

﴿ فَبَدَّلْنَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۖ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقِطِينَ ۖ ﴾

[الصفات : ١٤٥ - ١٤٦] .

* ذكر ابن كثير - رحمه الله - ما مختصره : ﴿ فَبَدَّلْنَا ﴾ أى ألقيناه ﴿ بِالْعَرَاءِ ﴾ قال ابن عباس : هى الأرض التى ليس بها نبت ولا بناء ، قيل على جانب دجلة ،

وقيل بأرض اليمن، والله أعلم، ﴿وهو سقيم﴾ أى ضعيف البدن... ﴿وأنبتا عليه شجرة من يقطين﴾ قال ابن مسعود وابن عباس: (اليقطين) هو القرع، وقال سعيد بن جبير: كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين، وفى رواية عنه: كل شجرة تهلك من عامها فهي من اليقطين، وذكر بعضهم فى اليقطين أى الدباء أو القرع فوائد منها: سرعة إنباته، وتظليل ورقه لكبره ونعومته، وأنه لا يقربه الذباب، وجودة تغذية ثمره، وأنه يؤكل نيشا ومطبوخا بلبه وقشره أيضاً، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء، ويتبعه من حواشى الصفحة.

﴿وجاء فى كل من تفسير الجلالين، والظلال، وصفوة البيان لمعانى القرآن، والمختب فى تفسير القرآن الكريم وصفوة التفاسير كلام مشابه لكلام ابن كثير، ولا أرى حاجة إلى تكراره.

من الدلالات العلمية للآيتين الكريمتين

بتأمل هاتين الآيتين الكريمتين (١٤٥، ١٤٦ من سورة «الصفات») يتبادر إلى الذهن اختيار الله - سبحانه وتعالى - للتعبير القرآنى شجرة من يقطين لحماية عبده ونبيه يونس بن متى - على نبينا وعليه من الله السلام - بعد أن نبذه الحوت بالعراء وهو سقيم، أى: وهو منهك القوى من شدة المرض، وهذا التنكير فى الإشارة إلى شجرة اليقطين يفيد بأن الشجرة من جنس اليقطين الذى عرفه العرب ومنه كل من قرع الكوسة، والحنظل، وليست نوعاً محدداً بذاته.

واليقطين ينتمى إلى مجموعة من النباتات العشبية، الزاحفة، التى تفرش الأرض، ومنها ماله قدرة على التسلق بواسطة عدد من المحاليل اللتوية، التى تخرج من جوانب الساق بالقرب من أعناق الأوراق، ومنها الحولى، ومنها المعمر، وتمتاز كلها بالسيفان العشبية الخماسية الأضلاع، وبالأوراق الكبيرة، الراحة أى الشبيهة براحة الكف، وهى مفصصة، ومتبادلة، ولها أعناق طويلة، بغير أذينات؛ وتمتاز بالوبر الكثيف الذى يغطى كلاً من السيفان والأوراق. وبالزهور الأحادية الجنس - أى المؤنثة أو المذكرة - التى تخرج من أباط الأوراق، وبالثمار اللبية/ الشحمية، المتباينة الأشكال، والأحجام، والألوان، والطعوم والروائح، والحاوية لأعداد من البذور.

وهذه النباتات تنطوي كلها فى عائلة واحدة تعرف باسم العائلة اليقطينية أو القرعية (Family Cucurbitaceae)، وفى رتبة واحدة تعرف باسم رتبة اليقطينيات. أو القرعيات (Order Cucurbitales)، وتشمل العائلة اليقطينية حوالى المائة جنس، يمثل كل منها عشرة أنواع على الأقل، أى تحتوى على حوالى الألف نوع، تنتشر فى المناطق المدارية، وشبه المدارية من الكرة الأرضية، ومن أمثلتها : قرع الكوسة (أو الدباء) (*Cucurbita pepo*)، القرع العسلى (*Cucurbita maxima*) العجور، (*Cucurbita melo var. flexuosus*) الخيار، (*Cucumis sativus*) الشمام (*Cucumis dudaim*)، البطيخ، (*Citrullus lanatus*)، القاوون (*Citrullus melo*)، قرع الأوانى (أو قرع الزجاجاة) (*Lagenaria siceraria* or *L. vulgaris*)، الليف (*Luffa cylindrica*)، والحنظل (*Citrullus colocynthis*).

ولما كانت هذه النباتات كلها من النباتات العشبية، ومن ثم يصعب وصفها بالأشجار؛ لأنه من المتعارف عليه أن الأشجار لها سيقان خشبية قوية، قائمة بذاتها، واليقطينيات سيقانها طرية، وغير قائمة بذاتها، يمكن افتراض أن الشجرة التى أنبتها الله - سبحانه وتعالى - على عبده ونبيه «يونس بن متى» كانت شجرة خاصة تجمع بين صفات اليقطينيات وصفات الشجر، ولكن لما كان القرآن الكريم قد عبر بالتعبيرين شجرة وأشجار عن النبات عموماً، كما عبر بالتعبيرين دابة ودواب عن عالم الحيوان بأكمله، لانرى حاجة لهذا الافتراض. وإن كان فى المنظور العلمى لا يوجد ما يمنع اليقطينيات من إمكانية التواجد على هيئة شجرية، على الرغم من ضخامة ثمارها التى قد يصل وزن الواحدة منها إلى أكثر من عشرة كيلو جرامات، وقد أفلحت التجارب الزراعية بالفعل فى تحقيق نمو بعض النباتات العشبية فى هيئة قائمة إما بمساعدة الأسلاك بداخل الصوب النباتية، أو بالمعالجة ببعض الهرمونات، أو باستخدام بعض وسائط الهندسة الوراثية، فإذا كان الإنسان قد حققه فإنه لا يعجز رب الإنسان.

(وانبتنا عليه شجرة من يقطين)

من المقطوع به أن الشجرة التى أنبتها ربنا - تبارك وتعالى - ليظلل بها على عبده ونبيه يونس بن متى عليه السلام، ويستره بأوراقها الكبيرة، ويداويه من سقمه بما فى

أوراقها، وزهورها، وثمارها، وأغصانها، وسيقانها، وعصاثرها من مركبات هي شجرة خاصة معجزة، أثبتتها ربنا - تبارك وتعالى - بأمره الذي لا يرد، إلا أن الصياغة القرآنية : شجرة من يقطين توحى بأن المقصود هو عموم اليقطين الذي نعرفه . وهنا يظهر التساؤل المنطقي : وماذا فى اليقطينيات من علاج للحالات المماثلة للحالة التى مر بها نبي الله يونس عليه السلام بعد أن التقمه الحوت ولفظه بالعراء وهو سقيم، أى مريض منهك القوى؟

وقد حاول الأخ الكريم الدكتور كمال فضل الخليفة - الأستاذ المشارك لعلم النبات بجامعة الخرطوم - الإجابة عن هذا السؤال فى رسالتين جامعتين تمتا تحت إشرافه للحصول على درجة الماجستير فى العلوم، وأعد موجزاً عن نتائجهما فى مقال بعنوان «اليقطينيات وقاية وعلاج وغذاء»، نشره فى العدد الرابع عشر من مجلة الإعجاز العلمى الصادر بتاريخ الأول من ذى القعدة سنة ١٤٢٣ هـ .

وفى هذا المقال ذكر الباحث أنه اختار أربعاً من اليقطينيات المشهورة فى البلاد العربية وهى : قرع الأوانى، والقرع العسلى، والعجور، والحنظل، وقام بزراعتها وتعهدها حتى أثمرت، وجنى ثمارها، وفى هذه المراحل المختلفة قام بتحضير مستخلصات من مختلف أجزاء هذه النباتات الأربع مستخدماً كلاً من الماء، والكحول الميثانولى، والكلوروفورم فى كل حالة، وتم له اختبار تلك المستخلصات ضد أربعة أنواع مختلفة من البكتريا فأظهرت جميعها فعالية واضحة فى مقاومتها مع اختلاف درجة تلك المقاومة باختلاف نوع النبات، واختلاف الأجزاء المختارة منه، والوسائل المستخدمة فى عملية تجهيز المستخلصات، ونوع البكتريا التى استخدمت تلك المستخلصات فى إبادتها.

وكانت أعلى درجات المقاومة من المستخلصات المستمدة من الزهور بصفة عامة، ومن زهور وثمار الحنظل بصفة خاصة، ثم من أوراق القرع العسلى، وكان الكحول الميثانولى أفضل سوائل الاستخلاص.

كذلك أثبت الباحث الأثر الواضح لليقطينيات الأربع المدروسة فى مقاومة وطرد بعض الحشرات من مثل الذبابة المنزلية، وآفات المخازن، وفى الوقاية من الأمراض التى يمكن لهذه الحشرات أن تنقلها.

وقد ثبت أن هذه المقدرة على مقاومة الحشرات مردها إلى وجود العديد من المركبات الكيميائية المهمة التى لها تأثير وقائى وطبى واضح فى مقاومة وعلاج العديد من الالتهابات الجلدية وتقرحاتها، والأمراض التى يمكن أن تنتج عن ذلك. وقد ثبت بالفعل أن هذه المركبات الكيميائية لها تأثيراتها الفاعلة فى علاج عدد من أمراض الجهازين الهضمى والبولى، وفى مقاومة بعض الأمراض السرطانية - عافانا الله جميعاً منها - . هذا بالإضافة إلى القيمة الغذائية العالية لثمار اليقطينيات المأكولة، والقيمة الطبية للثمار التى لا تؤكل مثل ثمار الحنظل.

وهنا نتضح روعة الإشارة القرآنية المبهرة فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ [الصافات : ١٤٦]. خاصة إذا أدركنا أن القرآن الكريم قد أنزل منذ أكثر من ألف وأربعمائة من السنين على نبي أمى ﷺ ، وفى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين . ، فمثل هذه الومضات النورانية فى كتاب الله أنزلها ربنا - تبارك وتعالى - شاهدة له بطلاقة القدرة على الخلق ، وعلى البعث ، ومؤكدة ألوهيته ، وربوبيته ، ووحدانيته ، وشاهدة للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية ، بل هو كلام الله الخالق الذى أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ، وتعهده بحفظه بنفس لغة وحيه - اللغة العربية - ، فبقى محفوظاً بحفظ الله كلمة كلمة ، وحرفاً حرفاً على مدى يزيد على أربعة عشر قرناً وسوف يظل محفوظاً بهذا العهد إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها .

وتبقى هذه الإشارات العلمية فى كتاب الله حجة على أهل عصرنا وشاهدة لسيدنا محمد ﷺ بالنبوة وبالرسالة ، وبأنه - صلوات الله وسلامه عليه - كان موصولاً بالوحى ، ومُعَلِّماً من قبل خالق السماوات والأرض .

فالحمد لله على نعمة الإسلام ، والحمد لله على نعمة القرآن ، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين الذى أرسله الله - تعالى - رحمة للعالمين ، فصلى الله وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه ، ومن تبع هداة ، ودعا بدعوته إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

